﴿سَيَقُولُ ٱلۡمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقۡتُمۡ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأۡخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعۡكُمۡۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمۡ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبۡلُۖ فَسَيَقُولُونَ بَلۡ تَحۡسُدُونَنَاۚ بَلۡ كَانُواْ لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٥﴾ [الفتح: 15]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قبلَها:

لَمّا ذَمَّ المخلَّفينَ وبيَّنَ خُسرانَهم أخبرَ عن منعِهم اتِّباعَ الرَّسولِ ﷺ طَمَعًا في الغنائمِ

لمّا ذَكَرَ تعالى المُخلَّفين وذمَّهم على تقاعسهم؛ بَيَّنَ أن من عقوبتهم الدنيوية حِرمانَهم مِنَ الغنائم، واختِصاصَ الصَّحابةِ الذين بذلوا الأرواح في سبيل الله، وحرمان المُخلَّفين منها، شرعًا وقدرًا، بسبب ما جَنَوْه على أنفسهم بتخلّفهم عن القتال أول مرة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱنطَلَقۡتُمۡ﴾: (طلق) أصلٌ صحيحٌ مطَّرِدٌ واحد، وهو يدلُّ على التَّخليَةِ والإرسال، يُقال: انْطلقَ الرَّجلُ ينطلِقُ انْطلاقًا، ثمَّ ترجعُ الفُروع إليه، تقول: أطْلقتُه إطلاقًا، ورجلٌ طَلْقُ الوجهِ وطليقُه، كأنَّه منطلِقٌ، ورجلٌ طَلْقُ اللِّسانِ وطليقُه. وانْطلقَ فلانٌ: إذا مرَّ مُتخلِّفًا، وقيل للحلال: طَلْقٌ؛ أيْ: مُطلَقٌ لا حَظْرَ عليه، وعَدا الفَرَسُ طَلْقًا أو طَلْقَيْن اعْتبارًا بتخليةِ سبيلِه[2]. ومعنى ﴿ٱنطَلَقۡتُمۡ﴾ هنا في الآية: سِرْتُم.

2) ﴿مَغَانِمَ﴾: (غنم) أصلٌ صحيحٌ واحدٌ يدلُّ على إفادةِ شيءٍ لم يُملَكْ من قَبْل، ثمَّ يختصُّ به ما أُخِذَ من مالِ المشركين بقَهْرٍ وغَلَبةٍ، قال الله تعالى: ﴿۞وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم﴾ [الأنفال: 41]. والغُنْمُ: إصابتُه

(1) السّعدي، تيسير الكريم الرّحمن، ص 793.
(2) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (طلق).

والظَّفَرُ به، ثمَّ اسْتُعمِلَ في كلِّ مظفورٍ به من جهةِ العِدَى وغيرِهم. والمَغْنَمُ: ما يُغنَمُ، وجمعُه مغانمُ، قال تعالى: ﴿فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ﴾ [النّساء: 94][1]، وهو المعنى المراد في الآية.

3) ﴿ذَرُونَا﴾: (وذر) يُقال يَذَرُ الشَّيءَ، أي: يقذِفُه لقِلَّةِ اعْتدادِه به، وذَرْهُ أي: دَعْه، يَذَرُهُ تَرْكًا، ويَدَعُه: يترُكُه، ولا تقل: وذْرًا، وأصلُه: وذِرَهُ يَذَرُهُ، كوَسِعَهُ يَسَعُهُ، ولكنْ ما نطقوا بماضيه، ولا بمصدرِه، ولا باسْمِ الفاعل، قال تعالى: ﴿فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾﴾ [الأنعام: 112]، وقال سبحانه: ﴿وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا﴾ [البقرة: 234][2] يعني يتركون، وهو المعنى المراد في الآية.

4) ﴿تَحْسُدُونَنَآ﴾: (حسد) أصلٌ واحد، وهو الحَسَد الذي يعني تمنّي زوال نعمةٍ من مستحقٍّ لها، وربَّما كان مع ذلك سعيٌ في إزالتِها، قال تعالى: ﴿حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم﴾ [البقرة: 109]، وقال تعالى: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق: 5][3]. وقولُه تعالى: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَآ﴾ أي: ما فعلتُموه بنا إلّا حسَدًا[4].

5) ﴿يَفْقَهُونَ﴾: (فقه) أصلٌ واحدٌ صحيح، يدلُّ على إدراكِ الشَّيءِ والعِلمِ به، تقولُ: فَقِهْتُ الحديثَ أفْقَهُهُ، وكلُّ علمٍ بشيءٍ فهو فِقْهٌ، ثمَّ اخْتُصَّ بذلك علمُ الشَّريعة، فقيل لكلِّ عالمٍ بالحلالِ والحرام: فقيه، وأفقهتُكَ الشَّيءَ إذا بيَّنْتُهُ لك، وفَقِهَ؛ أي: فَهِمَ، وتفقَّه: إذا طلبَه فتخصَّصَ به، والفِقْهُ أخصُّ من العلم، قال تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾﴾ [النّساء: 78][5]. وقولُه تعالى: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ أيْ: لا يعلمونَ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

يقولُ تعالى ذِكْرُه لنبيّه ﷺ: سيقولُ لك الأعرابُ الذين تخلَّفوا عن المسير معك، ومع أصحابك في عام الحُدَيبيَةَ: إذا انطلقتَ أنت ومَن صَحِبك إلى خَيْبَرَ لِتَأخذوا المغانمَ التي وعدكم اللّه بها؛ دَعونا نَتَّبِعْكُم، في محاولةٍ منهم لتغييرِ ما قضى اللّه به من تخصيص غنائم خَيْبَرَ للمؤمنين الذين شهدوا الحُدَيْبيَةَ، فيقولون بذلك: لنكن معكم في أخذ

(1) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (غنم).
(2) الرّاغب، المفردات، والفيروزآبادي، القاموس المحيط: (وذر).
(3) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (حسد).
(4) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 66.
(5) ابن فارس، مقاييس اللُّغة، والرّاغب، المفردات: (فقه).

مَـنْ لا يحضُرُ الـغُـرمَ لا يَنالُ الغُنْم

الغنائم، ثم يأمرُ الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يردَّ عليهم، فيقولُ: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾، مُبيّنًا لهم أنكم محرومون من المشاركة، كما قد قضى الله بذلك من قبلُ عند رجوعنا من الحُدَيبيَةِ، فلمّا منعهم رسولُ الله ﷺ من الذهاب معهم إلى خَيْبَرَ، قال أولئك المُخلَّفون من الأعرابِ: إنَّما مَنَعْتُمونا مِنَ الخُروجِ معكم لِكَيْ تَحسُدونَنا على ما رَجَوتُم من الغنائم، فهم قومٌ لا يفقهون ولا يعقلون، إلا قليلًا من الحكمة والفهم، حيث خَفيَ عليهم أن الله قد قضى بما هو خير لهم ولغيرهم[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

دلالة الاستئنافِ في الآية ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

إعلامُ النَّبيِّ ﷺ بـما سيقولُه المخلَّفونَ مع تأكيدِ كَذِبهم السّابق

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ هو استئنافٌ ثانٍ بعد قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾، في إعلامٍ من الله تعالى لنبيِّه ﷺ بما سيقوله أولئك المُخلَّفون عن الحُدَيبيَةِ حين يتذرَّعون بالأعذار الكاذبة لِتخلُّفِهم عن الموقف؛ فإنهم سيندمون حين يرون ما اصطفى الله تعالى لأهل الحُدَيبيَةِ من المغانم في غزوتهم. ويُظهر هذا الاستئناف تكذيبهم في اعتذارهم، ويؤكد أن تذرُّعهم بالأموال والأهلين كان كاذبًا، وأن الحرص على الغنائم في المعركة القادمة هو ما دفعهم إلى محاولة اللَّحاق بالرَّكْب، فيخالفون بذلك ما كانوا يدَّعونه من مشاغل الدنيا.

دلالة التَّعبيرِ بحرفِ الاستقبال ﴿سَيَقُولُ﴾:

اللـه ﷻ مُعِزٌّ جُنـدَه ومُنجزٌ وعدَه

السين في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ دالَّةٌ على قُرب الوقوع، وهو قربٌ زمانيٌّ يَشي بسرعة تحقُّق المقول، ولمّا كانت خيبرُ أقربَ المغانم زمنًا إلى منصرفِ أهل الحديبية، تعيَّنت هي المُرادة بهذا الإخبار، إذْ هي أوَّلُ ما انْتَهضوا إليه بعد الصُّلح، فكانت إرادتها

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 21/ 261، والقرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 270، وابن كثير، تفسير القرآن العظيم: 7/ 337.

كالمُتَحَتِّمةِ، وقد صحَّت الأخبار أنَّ الله ﷻ وعَد أصحابَ الحُديبيَةِ أن يُعوِّضهم عن مغانم مَكَّة - وقد رجعوا عنها موادِعين لا غانمين - بغنائم خيبر، فأنجز وعْدَه، وأظْهَر صِدْقَ وعْدِه، جزاءً لصبرهم وثباتهم، والله لا يُخلِف الميعاد.

الغرض من تعريف المُسند إليه ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾:

التَّعريفُ في قولِه تعالى: ﴿ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ للعهد، أي: سيقولُ المخلَّفونَ المذكورونَ من الأعراب إذا رَأوْا مسيرَ رسولِ الله ﷺ إلى يهود، وهم عدوٌّ مُستَضْعَف، طلبوا الكَوْنَ معه رغبةً في عرَضِ الدُّنيا والغنيمةِ، فكان كذلك[1].

المخلَّفون المذكورون هنا هم الأعراب السّالف ذِكْرُهم

بيانُ المُتشابِه اللَّفظيّ مع مطلع الآية [11]:

في قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ استُغني عن بيان كونهم من الأعراب، إذ قد تقدَّم ذِكْرُهم في قوله: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾؛ فصار ذِكْرُهم بعدُ من باب تعريف العهد، لا من باب بيان الجنس، ثُمَّ إنَّ هذه المقالة التي صدرت عنهم كانت نابعة عن رغبةٍ وحرصٍ ظاهر على إدراك الغنيمة، فناسب ذلك أن يُجرَّد القول من مُتعلّق الخطاب، فلم يُقَلْ: (سيقولون لك)، كما قيل في موضع العذر المصطنع، حيث جاء بلفظ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ ليُفهم منه أن قولَهم الأول كان مَشوبًا بالتَّلبيس، ومُرادَهم به إقناعُ النبيّ ﷺ بصدقِ دعواهم، ولذلك قالوا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾.

لمّا حصلت الرَّغبةُ والصِّدقُ للمخلَّفين في طلب المغنم قال (سَيَقولُ المُخَلَّفونَ)

سر التَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ الشَّرطيَّةِ دون (إن):

بيّنت أداة الشَّرط ﴿إِذَا﴾ أنَّ المُخَلَّفين سيطلبون الخروج مع النَّبيِّ ﷺ عند تحقق أمرٍ واقعٍ مستقبلًا، وهو انطلاقه ﷺ وأصحابه إلى مغانم خيبر، فجيء بالتَّعبير بـ ﴿إِذَا﴾ المختصَّة بما يَتحقَّق وقوعُه،

تحقُّق الشَّرطِ في فعلِه وجوابِه بـ (إذا)

(1) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز: 5/ 131، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 255.

بدلًا من (إنْ) المُفيدة للشكِّ والاحتمال، ودخلت على الفعل الماضي ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾ لتحقُّق الوقوع، ليُعبّر عن اليقين بحصول الحدث وثبوته، لا عن احتماله.

دلالة التَّعبيرِ بالفعلِ الماضي ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾:

وقوعُ فعلِ المضيِّ في قوله: ﴿ٱنطَلَقْتُمْ﴾ بعد إذا مُستعارٌ لمعنَى التَّحقيق والوقوع، أي: إذا تحقَّقَ انْطلاقُكم، أي: تَخْليَتُكُم إلى خَيْبرَ لأخذِ مغانمَ من قتالٍ غيرِ شديد[1].

معنَى ﴿إِلَىٰ﴾ ودلالتُها:

أشارَ مجيءُ حرفِ ﴿إِلَىٰ﴾ الدال على الانتهاء في قوله تعالى: ﴿إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾ إلى تمكينِ اللّه لهم من هذه المغانم، وحيازتِها جميعِها.

دلالة التعبير بصيغة منتهى الجموع ﴿مَغَانِمَ﴾ ومَجيئها مُنكَّرة:

عمومُ المغانم، وتنوُّعُها

وردت ﴿مَغَانِمَ﴾ نكرةً للدَّلالةِ على كَثرتِها وتنوُّعِها وعمومِ ما حوَته من زروعٍ وأموال وسلاحٍ وغير ذلك[2]. ولما كان الانطلاق والخروج في الأصل إلى غزوة خيبر، فقد عبّر عن الغزوة بـ (المغانم) بطريق المجاز المُرسل، حيث أُطلق ما يُفضي إليه الشيءُ على الشيء نفسه باعتبار ما يؤول إليه، كما في قوله تعالى: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ﴾ [يوسف: 36]، فأطلق "الخمر" وأراد "العنب" لكونه يؤول إليه، وفي هذا المجاز إيذانٌ بِتَيَقُّنِ الظَّفَرِ والنَّصر للمؤمنين في غزوتهم تشويقًا لهم، وتَهَكُّمًا بالمُخلَّفين، لأنهم حَرَصوا على المغانم لا على الجهاد.

معنَى اللّام ودلالتُها في ﴿لِتَأۡخُذُوهَا﴾:

لَمّا أفْهمَ لفظُ ﴿مَغَانِمَ﴾ الأخذَ، صرَّحَ بالبُغيةِ، وأظهرَ المقصودَ بلامِ العلَّةِ أو لامِ (كي) على وجه الحقيقة، فقال: ﴿لِتَأۡخُذُوهَا﴾ أيْ: من خَيبَر.

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 167.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 307.

دلالةُ التعبير بالمضارع ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ مُسندًا لواو الجماعة:

أخـذُ المؤمنين المغانمَ حقيقةٌ مع كثرتها

جيء بالفعلِ المضارعِ المُسْنَد إلى ضمير الجمع، في قوله تعالى: ﴿لِتَأْخُذُوهَا﴾ ترشيحًا للمجازِ السّابقِ في إطلاقِ المغانمِ على الغزوةِ، تقويةً للمجاز بإيراد ما يُلائم المعنى المجازي. وفيه إشعارٌ بأنَّ تلك الغنائمَ كأنَّها واقعةٌ في أيديهم، لا محالةَ لفوزِهم بها، وتحقيقِ الوعدِ فيها. كما أنَّ في صيغةِ الجمعِ ما يدلُّ على كثرةِ الآخذين، وكثرةِ المأخوذِ، وأنهم لم يُمنعوا منها شيئًا، بل حازوها أجمعين، فكان في ذلك تعويضٌ جزيلٌ لما فاتَهُم من فَتحِ مكة، وزيادةُ تكريمٍ وتسليةٍ على ما سبقَ من الامتحان.

دلالةُ التعبير بجملة ﴿ذَرُونَا﴾ مقولة القول:

شعورُ المُخلَّفين بأنَّ الرَّسولَ ﷺ سيمنعُهم من الخروجِ لخيبر

أشعرَ قولُه تعالى: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾ بأنّ النَّبيَّ ﷺ سَيَحجُزُهم عن اللُّحوقِ به إلى غزوةِ خيبرَ، وقَصْرِ الخُروجَ على مَن شهد الحديبيةَ، وهو مثل قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِيٓ أَقْتُلْ مُوسَىٰ﴾ [غافر: 26]، فإنّه لم يكن مَمنوعًا من قتله، ولكنَّه عبّر بذلك لإشعارِ قومِه بأنَّه محجوبٌ عن مرادِه، فقد كانوا يكفّونه عن قَتلِ موسى عليه السلام، ويُهوِّنون أمرَه عليه، ويقولون: ليس هو الذي تُخافُ مَغبَّتَه، إنْ هو إلّا ساحرٌ يُرينا الأعاجيبَ، فدَعْه وشأنَه، فإنّكَ لو قتلتَه ظُنَّ بك العجزُ عن معارضتِه بالحُجَّة والبيان[1]، فكذا هاهُنا. ويَحْتَمِلُ أن يكون مرادُهم: خَلّوا سَبيلَنا إلى الخُروجِ معكم كيفَما اتَّفق، وعلى أيِّ حالٍ رضيتم بها منّا، ولو كانت حالةً دنيَّةً، إذِ الغايةُ عندهم الظَّفَرُ بالمغانم، لا الطّاعةُ ولا الجهادُ، ويجوزُ أن يكون "المرادُ: اتركونا نخرجْ معكم على أيِّ حالةٍ شئتُم من الأحوالِ الدَّنيَّة"[2].

(1) البيضاوي، أنوار التنزيل: 5/ 55.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 307.

سرُّ التَّعبير بالفعل ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾ دلالةً وصيغةً:

زيـادةُ حـرصِ المخلَّفين اتِّباع المؤمنين إلى خيبر

قولُه تعالى: ﴿نَتَّبِعْكُمْ﴾، مرادُهم: نقتصُّ آثارَكم، ونلحقُ بجماعتِكم، ونكونُ معكم في الخروجِ إلى خيبرَ بأنفسِنا وأبدانِنا، لا نُخلِفُكم المشي، فجاء التَّعبيرُ بالفعلِ المضارعِ المضعَّفِ؛ دلالةً على شِدَّةِ حرصِهم واستمرارهم في الطَّلب، وإلحاحِهم في الرَّجاء. وهذا اللّفظُ حكايةٌ لمقالتِهم في مقامِ التَّودُّدِ والاستعطافِ، أرادوا به استِنزالَ القَبول، وتصويرَ أنفسِهم في صورةِ الأتباعِ الضُّعفاء، الرّاضين بأن يكونوا في مؤخرةِ العسكر، لا يُنافِسون في صَدرٍ ولا في غنيمةٍ وافرة، بل يرضَون من الغنائمِ بالحظِّ القليل، دلالةً على خضوعِهم، وتودُّدِهم، ومَسْكنتهم، وقد أخفى ذلك كلَّه طمعُهم وحِرصُهم الذي بان بعدُ في مواضعَ شتّى.

دلالةُ الفعل ﴿يُرِيدُونَ﴾ مضارعًا مُسنَدًا لضمير الجمع:

اسـتـمـرارُ إرادةِ المخلَّفين في غزوِ خيبرَ تغيير أمرِ الله

لمّا كان في تمكينِ هؤلاءِ المُخَلَّفين من الخروجِ مع رسولِ الله ﷺ ما يُفضي إلى إخلافِ وعدِ الله الحقّ، إذ قد خَصَّ بالغنيمةِ أهلَ الحديبية، وجعلها لهم دونَ غيرهم، وكان في ذلك خِذْلانٌ للمنافقين، عَلَّل سبحانه مقالتَهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾، بقوله: ﴿يُرِيدُونَ﴾، أي: يُضمِرون إرادةً مستمرةً في طلبِ اتِّباعِكم، لا نصرةً ولا رغبةً في الخير، بل ليُغيِّروا أمرَ الله الذي أنزله على رسولِه، ويُدخِلوا أنفسَهم فيما طُردوا عنه ومُنعوا منه، وقد خابَ مسعاهم، وأظهر الله ما كانوا يُخفون.

دلالةُ التَّعبيرِ بالمصدرِ المؤوَّل ﴿أَن يُبَدِّلُواْ﴾ دون الصَّريح:

حـرصُ المخلَّفينَ أن يـتـوصَّـلـوا لـلـتَّـشـكـيكِ في تغييرِ أمرِ الله

جاءَ قولُه تعالى: ﴿يُرِيدُونَ﴾ تعليلًا لطلبِ اتِّباعهم، واستعمالُ أن المصدريَّة مع فعلِها أوْفَى في إفادةِ إرادتِهم وتعليلِها، كأنَّه قال: يريدون بذهابِهم معكم ليتوصَّلوا إلى تشكيكِ أهلِ الإسلام في أمرِ الله في أن لا يُشاركَ المؤمنين من الَّذين بايعوا بيعةَ الرِّضوانِ في

الحُدَيبيَة أحدٌ غيرهم في غنائم خَيْبَر[1]؛ إذ المرادُ بتبديلِ كلامِ الله - ﷻ - أن يُشرَكوا في المغانم دونَ أن يَخوضوا المعارك في الجهادِ، ولا أن يَنصروا دينَ الله، أو يُعلوا كلمتَه[2].

سرُّ التعبير بالمفعول به مُضافًا للاسم الجليل ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾:

الوعدُ الخاصُّ لأهلِ الحُديبيَةِ بغنائم خيبر

آثرَ النَّظمُ الكريمُ التَّعبيرَ بـ ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ دون (القرآن)؛ لأن المُراد بكلامِ الله - ﷻ - هو ما أوحاه إلى نبيِّه ﷺ من وعدٍ لأهلِ الحديبيةِ بمغانمِ خيبرَ خاصَّةً لهم، وليس المقصودُ بكلامِ الله هنا القرآنَ الكريم، إذ لم يكن قد نزلَ في ذلك الحينِ من القرآن ما يُفصِّل هذا الوعدَ، وقد أُضيف ﴿كَلَٰمَ﴾ وهو مصدرٌ إلى لفظِ الجلالةِ فتعرَّفَ به[3]. وصرَّحَ النَّظمُ الكريمُ بلفظِ الجلالةِ ﴿كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ إظهارًا لشرف الوعدِ الإلهيِّ الَّذي وعدَه تعالى لرسولِه ﷺ بأن تكونَ غنائمُ خَيْبرَ لأهلِ الحُديبيَةِ وبَيْعةِ الرِّضوانِ خاصَّةً لهم.

وفيه كذلكَ تشريفٌ لهم بهذا الوعدِ الإلهيِّ، وزرعُ المهابةِ في قلوبِ المخلَّفين الَّذين يريدون اتِّباعَ رسولِ الله ﷺ وجماعةِ المؤمنين إلى خَيْبرَ طمعًا بالغنائم لعلَّهم يَرْعَوونَ عمّا هم عليه من نِفاقٍ، فالله المحيطُ بكلِّ شيءٍ قدرةً وعلمًا قد حكمَ بأنَّ فتحَ خَيْبرَ مختصٌّ بأهلِ الحُدَيبيَة[4].

دلالةُ القيد بالجملة الحاليَّةِ في: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾:

جملةُ ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُواْ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ في موضعِ الحال[5]، وفي هذا القيد فَضْحٌ لما انْطَوت عليه نواياهم، وأصَرَّت عليه قلوبُهم.

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 307 - 308، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 168.
(2) المراغي، تفسير المراغي: 26/ 96.
(3) الفرّاء، معاني القرآن: 3/ 66، وأبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 489.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.

دلالة الاستئناف في الأمر بالقول في: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾:

ما يقولُه الرَّسولُ ﷺ هو من عندِ الله

لَمّا كان السّامعُ جديرًا بأن يسألَ عمّا يُقال لهم، قال مخاطبًا لأصدقِ الخلقِ ﷺ: قلْ لهم لن تتَّبعونا، للدَّلالةِ بأنَّ ما يقولُه الرَّسولُ ﷺ هو من عندِ اللّه، فهو مُبلِّغٌ عنِ اللّه مُؤْتَمنٌ بإيصالِ رسالتِه وأحكامِه للنّاس[1].

دلالة الأمر بالقول في مقام التبليغ:

تشريفُ منزلةِ رسولِ الله ﷺ

في الأمر بالقول في مقام التبليغ في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ رفعٌ لشأنِ رسولِ اللّه ﷺ، كأنَّ اللّه تعالى يقول: قل يا حبيبُ لهم - إذا بلغكَ كلامُهم - أنتَ بنفسِك، فإنَّ غيرَكَ لا يقومُ مقامَك في هذا الأمرِ المهمّ[2].

بلاغةُ التعبيرِ عن النَّهْيِ في صورة النَّفْيِ:

تأكيدُ عدمِ خروجِهم لخيبرَ مع زَجْرِهم

النَّفيُ هنا بمعنى النَّهي في قوله تعالى: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ للمبالغة، والمعنى: لا تتبعونا؛ فالخبر هنا مجاز عن النهي الإنشائي؛ وقد جاء إيثار النَّظم الكريم اسْتِخْدامَ ﴿لَّن﴾ تأكيدًا للقول، ليبيِّنَ بذلك أنَّهم لن يتَّبعوا النَّبيَّ ﷺ، ولو اجتهدوا في ذلك أو حَرَصوا عليه، فـ﴿لَّن﴾ في هذا المقام دالَّةٌ على استحالة اتِّباعهم له، وقد ساقَها مساقَ النَّفي، رغم أنَّ المرادَ به النَّهْيُ، ليكون أقوى في النَّفي والإبعادِ، وهذا مع كونه عَلَمًا من أعلام النُّبوَّة، فهو أيضًا أزْجَرُ وأدَلُّ على الاستهانة بتمنّياتِهم، وكأنَّه يقول لهم: "لن يكون هذا، مهما حاولتم".

دلالةُ التعبير بـ ﴿تَتَّبِعُونَا﴾ مضارعًا مضعَّفًا مُسنَدًا إلى ضمير الجمع:

المنافقون لا يَدَّخِرونَ وُسْعًا في تثبيطِ المؤمنين

قولُه: ﴿تَتَّبِعُونَا﴾ أيْ: تقتفوا أثَرَنا، جاءَ هذا الفعلُ بصيغةِ المضارعِ المضعَّفِ المُسند إلى ضمير الجمع بعد النَّفي الَّذي يفيدُ النَّهيَ؛ لتأكيدِ تجدُّدِ نهيِهم جميعِهم عنِ اتِّباعِ المؤمنين في خروجِهم

(1) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.

إلى خَيْبَر، وأخذِ غنائمِها، وإنِ اجْتهدوا في ذلك مع المبالغةِ في هذا النَّهي الَّذي أفادَه التَّضعيف؛ ممّا يدلُّ على تأكيدِ النَّفي لقطعِ أطماعِهم في الإذنِ لهم باتِّباعِ الجيشِ الخارجِ إلى خَيْبر[1].

الغرض من التعبير بالمفعول به ضمير متكلِّمين:

الرسول ﷺ ليس وحده، وإنما هو وأتباعه كرجلٍ واحدٍ فتكلَّم بضمير الكلِّ، وفي ذلك تصغير لشأن المُخَلَّفين.

بلاغةُ التعبير بالتَّشبيهِ في ﴿كَذَٰلِكُمۡ قَالَ﴾:

لمّا أذنَ هذا التَّأكيدُ في قولِه تعالى: ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ أنَّه من عند من لا يُخالَفُ أصلًا في مرادِه؛ بيَّنَه تعالى بقوله: ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾ أي: مثلُ هذا القولِ البديعِ الشَّأنِ العليِّ الرُّتبةِ قالَ اللّه تعالى من قبلِ هذا الوقت[2].

قـــولُ الـلـه بـمـنـعِـهـم من الـخـروجِ لخَيْبرَ قـــولٌ عـظـيـمُ الشَّأن

الغرض من التعبير باسمِ الإشارة الدّالِّ على البُعد: ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾:

اسْمُ الإشارةِ في قولِه تعالى: ﴿كَذَٰلِكُمۡ﴾ للإشارةِ إلى بُعدِ منزلةِ هذا القولِ البديعِ الشَّأنِ وعُلوِّ رُتبتِه، فهو ليس كأيِّ قول، إنَّما هو قولُ اللّه الَّذي لا يُخالَفُ ولا يُرَدّ[3].

دلالةُ التعبير بالماضي في: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾:

عَبَّر بالماضي في ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ للدَّلالةِ على تحقُّقِ هذا القولِ وعدمِ مراجعتِه؛ لأنَّ اللّه لا يقولُ إلّا الحقَّ والحكمة، وتأكيدِ أنَّه من عندِ مَنْ لا يُخالَفُ أصلًا في مرادِه[4].

الغرض من التعبير بالمُسند إليه بالاسم الجليل: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾:

جاءَ التَّصريحُ باسمِ الجلالةِ في قولِه تعالى: ﴿قَالَ ٱللَّهُ﴾ ليُعَرِّفَ السّامعَ أنَّ هذا القولَ العظيمَ الرَّفيعَ الشَّأن هو قولُ اللّه ﷻ، الملك

قولُ الله القادرِ على كلِّ شيءٍ هو النّافذ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 169.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.
(4) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 308.

الأعظم الذي لا مُعقِّب لحُكمه، ولا يُقاسُ قولٌ بقوله؛ ففي التَّصريح بذكره تنويهٌ بعظمةِ هذا القول، وعلوِّ شأنِه، ليظهر أنَّ قولَه لا شبيهَ له، وحُكْمَه لا مُعقِّب له.

معنَى الفاءِ ودلالتُها في ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

التَّنبيهُ على سوءِ طَويَّتِهم مُتَرتِّبٌ على أطماعِهم

الفاء في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ استئنافية للتَّسبيب[1] أي: لَمّا كانوا منافقين، وهم يظنّون أنَّ أعذارَهم، إنَّما هي حيَلٌ على التَّوصُّلِ إلى المراداتِ الدُّنيويَّة، والأطماعِ المادّيَّة، سبَّبَ عن ذلكَ التَّنبيه على جلافتِهم وفسادِ ظُنونِهم، فقال: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾، أي: ليس الأمرُ كما ذكَر ممّا ادَّعى أنَّه قولُ اللّه[2]. وقد تكون الفاء رابطةً لجواب شرط مقدّر؛ أيْ: إذا منعتَهم من الخروج معك إلى غزوة خيبر أو إذا أبْديتَ لهم أن غزوة خيبر ستكون من نصيب المؤمنين الذين كانوا في الحديبية[3].

نكتةُ تَكْرارِ فعلِ القولِ المسبوقِ بسينِ الاستقبال ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾:

تحـقُّـق وقـوع قولهم عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة

تدلُّ (سين) المستقبل في قوله تعالى: ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ و﴿سَيَقُولُ﴾ على أنَّ الأقوال التي ذكرها في المرَّة الأولى عن المُتخلِّفين، والتي أُمر النبيُّ ﷺ بأن يقولها لهم في الثانية؛ قد سبقت في التَّصَوُّر والتقدير لما سيكون حالهم عند المواجهة[4]. وهذا يُعدُّ من قبيل ما يُنتظر أن يكون من قولهم وهو عَلَمٌ من أعلام النُّبوَّة إذ أخبر الحق سبحانه بما سيقولونه قبل صدوره منهم، قال ابن عاشور: "وقد قالوا ذلك بعد نحو شهر ونصف، فلما سمع المسلمون المتأهِّبون للخروج إلى خيبرَ مقالتَهم قالوا: قد أخبرنا اللّه في الحُدَيبيَةِ بأنهم سيقولون هذا"[5].

(1) بهجت، إعراب القرآن الكريم: 9/ 406.
(2) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.
(3) العلوان، إعراب القرآن الكريم: 4/ 2259.
(4) دروزة، التّفسير الحديث: 8/ 595.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 169.

دلالة التعبير بـ ﴿بَلْ﴾:

إبطالُهم ما سبقَ باعتمادِهم تُهمةَ الحَسَد

﴿بَلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَآ﴾ للإضرابِ عن ﴿لَّن تَتَّبِعُونَا﴾ وهو إضرابُ إبطالٍ نشأ عن فَوْرةِ الغضبِ المخلوطِ بالجهالةِ وسوءِ النَّظَر، أي: ليس بكم الحفاظُ على أمرِ الله؛ بل بكم أنْ لا نُقاسمَكم في المغانمِ حَسَدًا لنا على ما نُصيبُ من المغانم[1]؛ فالمعنى: ليس هذا حُكْمَ الله تعالى؛ بل من عند أنفسكم حسدًا فتحسدوننا، فالإضراب رَدٌّ أن يكون حكم الله أن لا يتبعوهم وإثبات الحَسدِ[2].

دلالة التعبير بالمضارع المُسنَدِ إلى واو الجماعة في: ﴿تَحْسُدُونَنَآ﴾:

المنافقون يزعمون أن إجماعَ المؤمنين من أهل الحُدَيبيَةِ على حَسَدِهم مُتَجَدِّد

عَبَّر بالفعل المضارع ﴿تَحْسُدُونَنَآ﴾ للدلالة على التَّجَدُّدِ والحُدوث، وكأنه شأن مستمر دائم من المؤمنين قبل المنافقين، وأسند الفعل إلى واو الجماعة تأكيدًا لدعوى المنافقين تجاه المؤمنين أن حَسَدَهم جماعيٌّ.. وقد ذكر غيرُ واحدٍ من المفسِّرين أنَّ ضمير الرَّفع في ﴿تَحْسُدُونَنَآ﴾ مُرادٌ به المؤمنون من أهل الحُديبيَةِ، وقد نَسبوهم إلى الحسد لأنَّهم ظَنّوا أنَّ الجواب بمنعهم إنَّما هو لعدم رضى أهل الحديبية بمشاركتهم في المغانم[3].

نكتةُ تَكْرارِ ﴿بَلْ﴾ والفرقُ بين حرفي الإضراب:

المنافقون حَسَدَةٌ فضلًا عن الجهل وقلّةِ الفقه

في قوله تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ إضرابٌ انتقالي عن نسبتهم الحسدَ إلى المؤمنين، إلى ما هو أطمُّ وأشدُّ في باب المَذَمَّة، وهو الجهلُ وقِلَّةُ الفقه، فردَّ الله جلَّ شأنه كيدهم وأبان أنَّهم ما حُسدوا؛ بل هو حُكم الله تعالى فيهم، ولكنَّ جهلهم هذا أوقعهم في الزَّلل، وأعماهم عن مَهْيَعِ الحقّ؛ فاتَّهَموا أهلَ الإيمان بالحسد؛ وفي ذلك تعريضٌ بقُبح الجهل، وإشارة إلى ذمِّ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 169.
(2) أبو حيّان، البحر المحيط: 9/ 490، والقونوي، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 73.
(3) السيواسي، عيون التفاسير: 4/ 127، والآلوسي، روح المعاني: 13/ 256.

مَنْ لا فقه له، وأنَّ محبَّة الدنيا لا تكون شيمةَ العالم الرّاسخ، ولا خُلُقَ العاقل المتبصِّر(1).

والفرقُ بَيْنَ الاضرابين: أنَّ الأوَّلَ إضرابٌ معناه ردٌّ أن يكونَ حُكْمَ الله أنْ لا يتَّبعوهم، وإثباتُ الحَسَد، والثّاني رَدٌّ من الله لذلك و إثبات لجهلهم بأمور الدّين حيث أضرب عن وصفِهم بإضافةِ الحَسَدِ إلى المؤمنين إلى وصفِهم بما هو أطمُّ منه، وهو الجهلُ وقلَّةُ الفِقْه(2).

دلالةُ التعبير بـ ﴿كَانُواْ﴾:

جِبلَّةُ المخلَّفينَ قائمةٌ على قلّةِ الفِقْه

لَمّا كان الأمرُ ليس كما زعموا من اتِّهامِهمُ المؤمنين بحسدِهم، رتَّبَ عليه قولَه تعالى: ﴿بَلْ كَانُواْ﴾ أي: تحقَّقُ ما جُبِلوا عليه وطُبِعوا من عدمِ فِقْهِهم إلّا قليلًا(3)؛ فالتعبير بـ (كان) للدلالة على أن غباءهم طبعٌ وجِبلَّةٌ فيهم.

دلالة النَّفي بـ ﴿لَا﴾ في ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾:

انتفاءُ فهمهم عـام في أمـورِ الدّين

أفادَ النَّفيُ بـ ﴿لَا﴾ في قوله: ﴿لَا يَفْقَهُونَ﴾ تعميمَ انتفاءِ الفهم عنهم؛ لأنَّ الفعلَ في سياقِ النَّفي كالنَّكرةِ في سياقِ النَّفي يعمُّ، فلذلك اسْتثنَى منه بقوله: ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: إلّا فهمًا قليلًا في أمورِ دُنياهم، وأمّا أمورُ الآخرةِ فلا يفقهونَ منها شيئًا(4).

دلالةُ التعبير بالفعلِ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ مضارعًا مُسنَدًا إلى واو الجماعة:

استمرارُ عدمِ فَهمِهم وعمومُه في أمورِ الآخرة

دلَّت صيغةُ الفعلِ ﴿يَفْقَهُونَ﴾ المضارع على تجدُّدِ عدمِ فِقْهِهم واستمرار ذلك أنَّه محصورٌ في أمورِ دُنياهم، وأمّا أمورُ دينِهم فلا يفهمونَ منها شيئًا(5). وفي الإسناد إلى واو الجماعة، دلالة على أن هذا الفعل مُنْتَفٍ عنهم جميعًا.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 4/ 338، والقنوجي، فتح البيان: 13/ 102.
(2) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 545، والبيضاوي، أنوار التّنزيل: 5/ 129.
(3) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.
(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن: 16/ 271، والمراغي، تفسير المراغي: 26/ 97، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 26/ 170.
(5) البقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.

غرضُ التعبيرِ بأسلوب القَصْرِ ﴿لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾:

عُبِّر بأسلوب القصر، وبآكد أدواته ﴿لَا﴾ و﴿إِلَّا﴾، وهذا الطريق يأتي لمواجهة ما يُنكِره المخاطَبُ، وفي التعبير بالقَصْرِ تمكينُ المعنى وتقويتُه.

الغرض من تنكير ﴿قَلِيلٗا﴾:

اسْتِحقارُ فهمِهمُ القليلِ في أمورِ الدّين

جاءَ التَّعبيرُ بلفظ ﴿قَلِيلٗا﴾ في قوله تعالى: ﴿لَا يَفۡقَهُونَ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ صفةً لمصدرٍ محذوفٍ تقديرُه (فهمًا) أي: لا يفقهونَ إلّا فهمًا قليلًا، أو لا يفقهونَ فَهْمَ الحاذِقِ الماهرِ إلّا قليلًا. ووصفَ فَهْمَهم بقوله: ﴿قَلِيلٗا﴾ وهو نكرة، ازْدراءً واسْتحقارًا لفهمِهم وإدراكِهم السَّقيم، وذلك أنَّه فهمٌ في أمرِ دُنياهم، ومن ذلك إقرارُهم بالإيمانِ من أجلِها، وأمّا أمورُ الآخرةِ فلا يفهمونَ منها شيئًا، وذلك كما قال تعالى: ﴿يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ ٧﴾ [الرّوم: 7][1].

❁ الفُروقُ المُعجميَّة:

الفقه والعلم:

الفقهُ أخصُّ من العلم

الفقه هو العلم بمقتضى الكلام على تأمُّلِه وهو أخَصُّ من العلم، والعلم هو اعتقاد الشيء على ما هو به على سبيل الثقة، فهو الاعتقاد الجازم المطابق للواقع. وقد ناسب التعبير بنفي الفقه، لا بنفي العلم، لأن المُخلَّفين مسلمون، وفيهم مَن حَسُنَ إسلامه بعد ذلك، فناسب السياق نفي الأخص.

(1) الزّمخشري، الكشّاف: 3/ 545، والبقاعي، نظم الدُّرر: 18/ 309.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس والخمسون،
سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 56 ، 802 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-642-29-9
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 56 : المجلد السادس والخمسون، سورة محمَّد من الآية 07 إلى سورة الحُجُرَات الآية 14.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-642-29-9
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9075646 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"